

مقال: محاكمة ابن حزم الأندلسي

المصدر: مجلة المعرفة

بقلم: عزيز نصار

رقم العدد: 518

تاريخ الإصدار: 1 نوفمبر 2006

إعداد: موقع الشيخ عبد الحق التركماني

<https://www.turkmani.com>



الإِسْبَاع



محاكمة ابن حزم الأنديلسي

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

قصة
عزیز نصار

أثارت الصحف ضجة حول كتاب (طوق الحمامة في الألفة والألفة). عند
النقاد لؤلؤة ثمينة. وحدثوا القراء على الفصوص وراء كنوز القيمة. غضب آخرون.
واتهموا مؤلفه بالحديث عن أمور محرمة لا يجوز البوح بها. وطالبوا بمصادرة
الكتاب حفاظاً على الحشمة. ودعوا أن يسكت المداغمون عنه. وينكسوا الرؤوس
خجلاً.

استدعى القاضي صاحب (طوق الحمامة) ليحاكمه بشكل علني. فيكون عبرة

لمن يمتدح.

✦ أديب وقاص من سورية.

- العمل الفني: الفنان مطيع علي.

الذهن اللامع عاش في الأندلس منذ مئات السنين، وإنه عالم بالملل والنحل، وهو شاعر، أديب سياسي ومؤرخ، وكان له أثره في الفكر الإنساني، وترك إنتاجاً متنوعاً وغزيراً، وكتابه طوق الحمامة يتضمن أجمل النصوص، وهو زاخرٌ بمعرفة النفس الإنسانية.

قاملعه القاضي:

- طوق الحمامة سبيل إلى الضلال، والانحراف. إنه يهدد الأخلاق، والأعراض، ونحن نؤمن أن الشرف هو تلك الجوهرة التي لا بد أن ندافع عنها حتى آخر قطرة من دماننا.

أوضح المحامي:

- خلق الله الإنسان علمه البيان، فمن فرض عليه الخوف والبهتان. يحاول المتزمتون أن يظهروا عقلاء وحكماء. فيتهمون دون حس وذوق، الكراهية إرادة الشر، والمحبة إرادة الخير والسعادة، وقد كتب المؤلف صفحات خالدة عن العشق والعشاق، وذكر بعضاً من حكاياتهم، وهل يستطيع أحد أن يخرج من جنة الحب؟

تصفح القاضي أوراقه بعينه الكيليتين وقال:

- المؤلف من الفئة الضالة. وإن من ينشر حكايات العشق. مصيره جهنم، وبئس المصير.

أدرك الإمام ابن حزم حقيقة الموقف. وأن القاضي لا يعرف وجه الصواب فقال بثبات وقوة:

- عجباً لكم إنني مفطور على الخير، ولا

غصت قاعة المحكمة بالناس. دخل القاضي. فسأد الصمت. وقفوا جميعاً، والعيون مشدودة إليه. جلس إلى المنصة في وقار ورزانة بردائه الأسود الطويل، أمامه تكومت أوراق الدعوى. أعلن افتتاح الجلسة. قال:

- القضية أحيلت إلى المحكمة من رجال معروفين بالنزاهة يبحثون في جلود الناس وعروقهم. يراقبون كل كلمة وكل خفقة في الصدر.

وقف المؤلف بهيبة وهدوء، وبجانبه محامية. سأله القاضي بصوت خشن:

- ما اسمك؟

أجابه صاحب (طوق الحمامة):

- أنا الإمام ابن حزم الأندلسي أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد.

قرب القاضي جبينه وخاطبه: أنت متهم بإفساد الجيل والإساءة للآداب العامة.

علا صوت ابن حزم واثقاً مطمئناً:

- أنا الإمام أفسد الناس. هل وصلتكم إلى زمن لا تقدرّون فيه العلماء والمفكرين؟ قدمت لكم كتباً فيها متعة للنفس وبهجة للفؤاد. وفائدة للعقل، وبلغت مؤلفاتي أربعمئة مجلد ما يقارب ثمانين ألف ورقة، ومن أشهر هذه المؤلفات (طوق الحمامة) فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

ردّ المحامي:

- اتهام باطل. أيّ فساد تعني يا سيدي القاضي. هذا ابن حزم الإمام الفقيه صاحب



أكتب إلا ما يفرح الناس
وينفعهم سلوا عني
الكتّاب الكبار، وعلماء
الأمصار.

نظر القاضي إلى
الجالسين نظرة واحدة
كانت كافية ليفهم
تعاطفهم مع ابن حزم
وتعلقهم به. قال له:

- أنت تقوي الناس
بحديثك عن الحب
والنساء. تفتتهم، وتفتح
أبواب الجحيم.

قال ابن حزم
محتجاً:

- حديثي عن
العواطف الإنسانية
جائز شرعاً، وإني أفتح
أبواب النعيم.

قلب القاضي أوراقه
وقال مخاطباً ابن حزم:

- أهكذا تفهم الحسب؟ كيف تشجع على
الموت والانتحار من أجل امرأة؟
قال المحامي:

- إنه واسع الإدراك، وينشر الخير، ويدعو
للحياة والمحبة. وعلينا ألا ننتقل على الماضي
ونكتفي به، وعلينا ألا ننبذ كل ما ورد فيه.
لقى القاضي نظرة على أوراقه وقال:

- هناك حكاية عن رجل باع جارياً يحبها،
وحاول أن يشتريها من صاحبها الجديد

فرفض. شكاه للملك الذي عرف شدة تعلق
البائع بها، واستعداده لرمي نفسه عن السطح
في سبيل استرداد جاريتة. أمر الملك المشتري
أن يرمي نفسه من السطح كالبائع العاشق
فرفض المشتري، واضطر لإعادة الجارية
لصاحبها الأول.

قال المحامي:

- هذا ذكاء من الملك لإعادة الجارية لمن
يحبها، وقد فعل النبي سليمان مثل هذا حين
اختلفت امرأتان حول طفل، فطلب أن يقطع
نصفين، فرفضت الأم الحقيقية، لأنها تحب

الشباب تتابع صفحات كتابه بنهم وشغف، لأنها تمتلك إثارة يدينها قانون العقوبات. قاطعه المحامي باستغراب شديد: - القانون لا يتدخل بالعواطف والحب، وليس هناك أي إثارة رخيصة في الكتاب، والناس يقرؤونه فيرهف أحاسيسهم، ويتذوقون فيه أجمل الكلام. تابع القاضي كالح الوجه: - ورد في الكتاب حكاية رجل تكرهه الجواري وينضرن منه ثم يحببته من أجل المتعة.

قال المحامي:

- لماذا نخشى من كتب قرأها الأجداد؟ حكايات الحب والمحبين تملأ صفحات الكتب كالأغصان، والعقد الفريد يا سيدي القاضي، وبهذه المحاكمة تفتحون طوق الحمامة فيفيض خبأً وجمالاً، يزيح الهموم والأحزان ويجعلنا ننشر من البشاعة والأذى.

احتج القاضي:

- يتحدث المتهم عن أفانين غريبة من الحب.

قال ابن حزم:

- لماذا تضعون كل شيء في دائرة الحرام؟ ليس للحب صورة واحدة عندما استدعيتي المحكمة ظننت أنكم ستكافئوني بعد هذا الزمن الطويل.

قال المحامي:

- طوق الحمامة يحوي قصصاً عن المحبين وحياتهم، والقصة الكبرى هي الحياة

ابنها، وقد لجأ النبي سليمان لهذه الوسيلة البارعة ليكشف الحقيقة. وقف رجل ضخم في الصف الأمامي وقال حانقاً:

- هذا الكتاب يشكل خطراً على تعاليمنا.

قال ابن حزم:

- أنا عالم وفقه معروف. كيف أتهم بديني؟ هل تريدون أن تدفنوا معي كتاب طوق الحمامة؟ إنكم تتهمونني وريكم أعلم بما في صدري.

وقفت امرأة حاسرة الرأس وهي تلامس

كتاب طوق الحمامة بحنان وقالت:

- الكتاب كان واقعياً. قدّم صورة للحب والمحبين، يبتعد عن التشويهات المخلة بالحياة وهو يعلم حقائق الوجود، ويتحدث عن خلجات النفوس، فلماذا تخافونه وتحاكمونه؟ دقّ القاضي بمطرقة الخشبية وقال:

- أهذا ما تريدين قوله؟ استحي واجلسي.

سكت لحظة وعاد للحديث:

- وهذه هي حكاية رجل يبيع نساءه. ابن حزم يكتب على غير هدى.

قال المحامي:

- لم يكتب ابن حزم إلا ما شاهد وسمع، على شجيرات السورد تنمو الأشواك، وعندما تحدث عن المفسد، لم يشجع على اقترافها بل المقصود تجنبها.

اعترض القاضي:

- ابن حزم ضلّ سواء السبيل، وعيون

قال القاضي:

- هناك معجبون بالكتاب ذهب الإعجاب برؤوسهم.

وقفت امرأة في آخر القاعة تضع على رأسها غطاء. قالت:

- أليس لك قلب أيها القاضي؟ استمع إلى قلبك واستمع من كتاب طوق الحمامة.

قال القاضي للمرأة:

- هذه إهانة للمحكمة. إذا لم تلتزمي الحشمة، فسأخرجك من القاعة أليس لديك رجل يؤدبك؟ علينا أن نقطع دابر الفساد والمفسدين.

أوضح المحامي:

- المؤلف لم يتجاوز حدود الشرع. الحب هو حل لا مشكلة، لكن الناس جعلوا منه مشكلة لأنهم يعيشون تعلقاً بالتشدد والحقد والتطرف، والشرع يدعو للتسامح والاعتدال.

قال القاضي:

- كل يدافع عن شاكلته. ابن حزم يتحدث عن الجسد والأعضاء أيضاً.

قال المحامي:

لم يكن الأجداد يجدون حرجاً في تدوين عبارات، وطرائف تمس الجنس وإن الحياء الكاذب في قضايا الحشمة، وادعاء العفة مصيبة في هذه الأيام لقد كتب ابن حزم ما يراه صالحاً مفيداً. في الحي روح وعقل وجسد.

قال القاضي مخاطباً الحاضرين بصوت مهيب:

بكل أسواقها. وقد ترجم هذا الكتاب الهام إلى لغات كثيرة ونال إعجاباً وتقديراً.

قال القاضي:

- كفى... كفى... ابن حزم مضى في المعاصي غير مكرث.

رد المحامي:

- هذا الكتاب مع المرأة والتقدم، وفي عصرنا اختاره الباحثون للحديث عن الحب وعلاقته بالجسد، وعلينا ألا نهتم بالمسيئين للتراث فهم يذكرونه للتندر، والسخرية، ثم لماذا تحاكمون ابن حزم دون غيره؟

قال القاضي:

- هناك مطالبة بمنع حكايات مثل ألف ليلة وليلة، ومجموعة من كتب التراث التي تتحدث عن النساء، ولدينا قضايا عديدة.

قال المحامي:

- يبدو أن العقول المغلقة لن تجعل عظماء الأمة يرقدون في القبور مطمئنين، وستضعهم المحكمة في قفص الاتهام.

قال القاضي:

- هذا جزء من سيء ويستبيح المحرمات.

قال المحامي:

- الحب أثنى شيء في الوجود، والإنسان يعيش ليحب ويتذوق حلاوة الحياة.

قال ابن حزم:

- كيف يخرج الإنسان من الدنيا ولا يحمل زهرة في قلبه، ولا تلمحه أنفاس الحب؟ كتبت ما كتبت ليكون كل شيء أجمل وأفضل. لكنهم يريدون أن يحرموا كتب الأجداد الرائعة.

كتب تحكي عن الحب، وهناك قصائد عشق خالدة يا سيدي القاضي ألم تسمع «بالقول القاطع في وطء ذات البراقع».

إنها قصيدة للشيخ جلال الدين السيوطي العالم الجليل.

احتفظ القاضي بالصمت فواصل المحامي كلامه:

- التبادل هو حقيقة الحب، والمحِب يسعى لسعادة المحبوب، والناس جميعاً، وإن العالم بخير ما دام يضم أمثال هؤلاء المفكرين.

هزت القاعة صيحات التأييد والاستحسان لابن حزم. ولم يعرف القاضي ما يقول خشي من السخرية. للمم الأوراق وسط دهمول الحاضرين واستغرابهم وقال:

- تأجلت الجلسة تستكر المحاكمة:

لماذا نحاكم أجمل ما في تراثنا؟

- كفى هذه مأساة.

- بل هذه مهزلة.

- حاكموا ذوي العقول المتخلفة.

- ابن حزم مع الحياة والفرح والحب.

صاح القاضي:

- ما هذه الأصوات المزعجة المارقة؟

لم يسمعه أحد وجد أن الأصابع تشير إليه بالاتهام والقصور في الفهم، لاحقته النظرات الشامتة. هبّ واقفاً ليقدار القاعة، وفي ذهنه أسئلة هل كنا نحاكم ابن حزم حقاً؟ من انتصر في هذه المحاكمة؟ ومن خسر؟ أردنا محاكمته فحاكمتنا أردنا هزيمته فواجهنا

بالفكر والحب.

- اهجروا الكتب الماجنة، فهذا خير لكم.

نهضت امرأة وجهها قنديل ضوء متوهج. قالت:

- يا سيدي القاضي. سل زوجتيك الاثنتين. أما قرأتنا كتاب (طوق الحمامة)، وكتاب (رجوع الشيخ إلى صباه) في مكتبك العامرة؟

انبتقت في القاعة ضحكات امتعض القاضي وتعالق أنفاسه. خاف أن يفقد هيئته. دق بمطرقته الخشبية على المنصة وقال:

- هذا تحقير للمحكمة. أين هيبة المحكمة؟ وصلنا إلى آخر الزمان. امرأة تتحدث بهذه الوقاحة إنني أمر بإخراجها من القاعة فوراً.

قال ابن حزم مخاطباً القاضي:

- ما عساني أن أقول؟ أنت سعيد في حياتك؟ الحب وحده يجعل الإنسان سعيداً. تاريخ الإنسانية يمكن لنا أن نكتبه بلغة الحب، وبلغة الكراهية.

فأي لغة تختار؟

سكت ابن حزم قليلاً وأضاف:

- في زمني كان العلماء يستملحون الطرفة ويقصون النوادر، ويذكرون العشق والعشاق. نحن سبقنا أهل هذا الزمان.

قال المحامي:

- أصحاب العقول المتخلفة يضحكون سراً من الطرائف المحرمة والكلمات البذيئة، ثم يعلنون الحرب عليها أمام الملا هناك